



عبد الحميد جودة السحار

٨

بسم الله الرحمن الرحيم

« كَمْ تَرَكُوا منْ جَنَّاتٍ وَعُيُون ، وَزُرُوع وَمَقَام كَرِيم ، وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيها فَاكِهِينَ ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخرين » .

(قرآن كريم)

(سورة الدخان)

١

كانت جيوشُ المسلمينَ تحاربُ الرّومَ فى الشام ، فكان أبو عبيدةَ وخالدُ بنُ الوليدِ فى شُغل بفتحِ حِمْصَ وحلبَ وأنطاكية . وتقدَّم عَمرُو بنُ العاص ، وحاصر بيتَ المقدسِ ، وكان قائدُ جيوشِ الرّومِ أرْطَبون ، وكان داهيةً من دُهاتِهمْ ، فوجد عمرٌو فى قتالِه تعبًا شديدا ، فكتب إلى عمرَ يصف له ما يُلاقيهِ من شِدَّة ، ووصف له دَهاءَ أرطبون ، فقال عمرُ بنُ الخطّاب لمن حولَه : « قد رمَيْنا أرْطَبونَ الرّوم بأرْطَبون العرب ، فانظروا عمَّ ينفرج ».

كانَ عمرٌو داهيةً من دُهاةِ العرب ، وكان أَرْطَبونُ داهيةً من دُهاةِ الرّوم ، فقال عُمَر : إنّ الحربَ تدور الآن بين داهيةِ العربِ وداهيَةِ الرّوم ، فلننظرْ من منهما ينتصر !

كان عمرُو بنُ العاصِ يُرسل الرُّسلَ للتَّفاوض فى الصُّلح ، وأمَرَهمْ أن يُوافوه بمداخلِ العدوّ ، ومعرفةِ كلِّ شيء عنه ، حتى يستفيدَ بما يجمعُ من معلوماتٍ فى حربه ، ولكنَّ الرُّسُلَ لم يَشفُوا غليلـه ، فرأى أنْ يحتال ، وأن يذهبَ بنفسِه لمقابلـةِ أَرْطَبون ، دون أن يكشِفَ شخصيَّته .

وتنكَّرَ عمْرٌو ، وسار إلى أَرْطَبون ، ودخل عليهِ كأنَّه رسول ، وجَعلَ عمرٌو وأرْطبونُ يتحدَّثـان ، فداخلتْ أرْطبونَ الرِّيبةُ فى شخص محدِّثِه ، وجَدَه واسعَ الأُفق ، غزيرَ المعرفة ، فقال فى نفسِه : «واللّه إنَّ هذا لعمْرٌو ، أو أنَّه الذى يأخذُ عمرٌو برأيه ، وما كنتُ لأُصيبَ القومَ بأمرٍ أعظمَ عليهم من قتله ! » .

ثم دعا أرطبونُ جنديًّا مـن رجالِ حرسِـه ، فأسرَّ إليه : إذا مرَّ العربيُّ بمكان كـذا ، أنْ يقتُلَـه . وفطَن عمرٌو إلى أنَّ فى الأمـرِ خَديعـة ، وأنَّ أرْطبـونَ يُدبِّرُ قتلَه ، فقال لأرطَبون :

ـ قد سمِعتَ منّى وسمِعتُ منك ، فأمّا ما قُلتَه فقد وقع منى موقِعا ، وأنا واحدٌ من عشرة ، بعثنا عُمرُ بنُ الخطّاب مع هـذا الوالى لنُكاشِفَه ، ويُشهِدَنا أمورَه ، فأرْجعُ فآتيك بهم الآن ، فإنْ رَأَوْا فى الذى عرضتَ مثلَ الذى أرَى ، فقد رآه أهلُ العسْكرِ والأمير .

وطمِع أرْطبونُ فى أنْ يقتُلَ العشرةَ الذين يُشيرونَ على الأمير ، فأرسل إلى الحارسِ الذى أسرَّ إليه بقتلِ العربيِّ أن يتركَه ، وخرج عمْرٌو مُسرعا بعد أنْ خدَعَ أَرْطَبونَ الرّوم ، ونجا بنفسِه من القتل ، وعرَف أرطبونُ بعدَ ذلكَ ، أن الذى كانَ يحادثُهُ هو عَمرُو بنُ العاصِ نفسُه ، وأنه خدعَه لمَّا قال له : إنّه واحد من عشرة يستشيرُهم الأمير ، وإنّه راجعٌ ليأتيَه بهم ، فقال أرْطبونُ فى حَسْرة :

ـ خدَعنى الرَّجُل ، هذا أَدْهَى الخلق .

وبلغ عُمَرَ بنَ الخطّاب ما حدث ، فقال :

ـ غلبَهُ عمْرو ، للهِ عمرو !

٢

كان حِصارُ المسلمينَ لبيتِ المقدسِ في فصلِ الشّتاء والبرد ، فأقاموا عليها أربعةَ أشهر في أشدِّ قتال ، مع الصبر على المطر والثّلج ، ورأى عَمرٌو أن يطلُبَ من عُمرَ بن الخطّابِ مَدَدا ، فكتبَ إليه ، فلما جاء كتابُ عَمْرو إلى أمير المؤمنين ، قرأه على النّاس ، وسألهم : أيخرُج بنفسِه ، أم يُرسلُ الجنود ؟ فقال له عثمانُ بنُ عفّان :

ـ لا تركبْ إليهم ، ليكونَ أحقرَ لهم .

وقال له عليُّ بنُ أبي طالب :

ـ سرْ إليهم ، فقد أصابَ المسلمينَ جَهدٌ عظيم ، من البردِ والقِتال وطولِ المقام ، فإذا أنت قَدِمْتَ عليهم ، كان لك وللمسلمين الأمْنُ والعافيةُ والصلاحُ والفتح ، ولستُ آمَنُ أن ييأسُوا منك ومن

الصُّلح ، ويُمسكوا حصنَهم ، ويأتيهُم المدَدُ من بلادِهم وطَاغيتِهم ، لا سيمًا وبيتُ المقدسِ مُعظَّمٌ عندَهم وإليه يَحُجّون .

مال عمرُ إلى رأي عليٍّ بن أبي طالب ، فقد رأى في سقوطِ بيتِ المقدسِ القضاءَ على دَوْلَةِ الرّومِ في الشّام ، فاستخلفَ عليَّ بن أبي طالبٍ على المدينة ، وكتب إلى قوّاده أن يقابلوهُ في الجابيَة ، القريبةِ مِنْ بيتِ المقدس .

وركِب عُمر بعيرًا له ، وسار ومعه جماعةٌ من الصّحابة ، ليس معه إلاّ قِربةٌ مملوءَةٌ ماء ، وجَفنةٌ للزّاد ، وكساءٌ من الصّوف ، يجلس عليه إذا ركب ، ويفرشُه تحته إذا نام ، وعليه مُرَقَّعةٌ من صوف ، فيها أربعَ عشرةَ رُقعةً بعضُها من أديم !

ودخل عمرُ الشّام ، تلوح صلعتُه للشمس ، ليس عليه قَلنسُوةٌ ولا عِمامة ، وراح يتلفَّت حولَه ، فرأى قصورا وبساتين ، فتلا قولَ اللّه تعالى : « كم

تركوا من جنّاتٍ وعُيون ، وزُروع ومَقام كريم ، ونَعمةٍ كانوا فيها فـاكهين ، كذلك وَأورثناها قومًا آخرين » .

وأقبل القُوَّادُ يستقبلون أميرَ المؤمنينَ وعليهم الحرير ، فغضِب عُمر ، وسار إليهم ليحصِبَهم ، فما كـان الحريرُ لُبْسَ القُوَّادِ المُتقشِّفين ، فاعتذروا إليه بأن عليهمُ السِّلاح ، وأنَّهم يحتاجون إليه في حُروبِهم ، فسكت عنهم ، ثم راح يصافحُهم ويعانِقُهم .

وأقبل المسلمون يُسلِّمون على عُمر ، ثُمَّ صَلّى عُمرُ بالمسلمينَ صلاةَ الفجر ، ثم خطبَهم ، فقال :

ـــ أيُّهـا النّـاس ، أصلِحـوا سَـرائرَكم تصلُـحْ علانيَتُكُم ، واعملوا لآخرتِكم تُكفَوْا أمرَ دنياكم .

وجلس مع القوّاد يُحدِّثونه بما لَقُوا من الرّوم ، إلى أن حضرتْ صلاةُ الظُّهر ، فطلب الناسُ من عمرَ أن يطلبَ من بلالٍ مؤذِّنِ الرَّسولِ أن يؤذِّن ، فما أذَّنَ بلالٌ بعد موتِ الرَّسول . طلب عمرُ منه أن يؤذِّن ،

فقام بلالٌ وأذّن بصوتِه العذبِ الحنون ، الـذى طالما تردَّدَ فى جَنَباتِ المدينةِ فى عهـد مُحمَّـدٍ صلَّى اللّه عليه وسلَّم ، فَهَاج صوتُ بلال الذكرياتِ ، فلما قال : « اللّه أكبر » ، خشعتْ قلوبُهُمْ ، واقشعرّت أبدانُهم ، فلما قال : « أشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللّه ، وأشهدُ أنَّ مُحمَّدًا رسول اللّه » ، بكى النـاس بكـاءً شديدا ، لذكرِ اللّه وذِكْرِ رسولِه ، وكاد بلالٌ يقطعُ الأذان ؛ ولكنه استمرَّ وقد شرِقَ بدموعِـه ، وبكـى عمرُ حتى بلَّ لِحيَته ، وبكـى الذيـن لم يـروْا مُحمَّـدًا صلَّى اللّه عليه وسلَّم ، لبكاءِ إخوانِهم .

٣

كان عُمر بالجابية ، فإذا بفُرسان مُقْبلينَ فى أيديهم السُّيوف ، فأسـرع المُسـلمونَ إلى سلاحِهم ، فقـال عمر : إن هؤلاءِ قومٌ يستأمِنون .

واقتربَ فُرسان الرّوم ، فإذا بهم رسلُ أُسْقُفِ بيتِ المَقْدِس ، قد جاءوا يُصالحون أميرَ المؤمنين .

عرف أَرْطَبُونُ مَقدَمَ عُمَر ، وعرف ما نزل بالرُّوم على أيدى العرب ، فانسحب مُستخفِيًا إلى مصر ، وترك بطريقَ بيتِ المَقدِس يُفاوضُ المسلمين فى تسليم المدينة .

طلب البطْريقُ أن يُسلِّم بيتَ المقدِس لعمَرَ أميرِ المؤمنين ، فأمر عمرُ بالرّكوب ، فلما همَّ بالركوبِ على بعيره ، وعليه مُرَقَّعَةُ الصُّوف ، قال المسلمون :

ـ يا أميرَ المؤمنين ، لو ركبتَ غير بعيرك جوادا ، ولبست ثيابا بيضًا ، لكان ذلك أعظم لهَيبتك فى قلوب أعدائكَ .

فقال عمر : نحن قومٌ أعزَّنا اللّه بالإسلام ، فلا نطلبُ بغير اللّه بَديلا .

واستمرَّ المسلمون يسألونه ويَتَلطَّفون به ، إلى أن قبل أن يخلع مُرقَّعَته ، ولبس ثيابا بيضًا ، وركب

جوادًا من جيادِ الرُّوم ، وطرح على كتِفَيه منديلا من الكتَّان ، دفعه إليه أبو عُبيدَة ، وسار الجوادُ يتبختَر فى مِشيته ، فلما رأى عمرُ ذلك ، نزل مُسرعا ، وقال : أقيلوا عَثْرَتى ، أقالَ اللّهُ عثرتَكم يومَ القِيامة ، فقد كادَ أميرُكم يهلِك بما دخل قلبى من العُجبِ والكِبْرِ !

وخلع الثَّوبَ الأبيض ، ولبس مُرَقَّعَته ، وركِب بعيرَه .

وسار عُمر حتى بلغ بيتَ المقدِس ، ففُتِحَتْ له أبوابُها ، وأسرع البطريقُ وأهلُ بيتِ المَقْدس يُرحِّبونَ بمَقدَمِه ، فقد أمَّنهم على حياتِهم وعلى أموالِهم ، وترك لهم كنائسَهم وصُلبانَهم ، وصالحهم على ألاَّ يُكرهوا على دينهم ، على أن يُعطوا الجزية .

وكان سرورُ أهلِ بيتِ المقدسِ بهذا الصُّلح عظيما ؛ فأسرعوا يُحيُّونَ عُمَر ، فلما رآهم عمرُ فى تلك

الحالة ، تواضع للّـه سبحانه وتعالى ، وخرَّ ساجدا على قَتَبِ بعيرِه .

٤

ودخل عمَرُ المسجدَ الأقْصَى ، أوّلَ قبلةٍ للمُسلمين ، والمكانَ الذى أَسْرَى إليه الرّسول « سبحانَ الذى أسرَى بعبدِه ليلاً من المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى ! » ، وكان اللّيلُ قد أرخَى ستائرَه ، فذهب إلى محرابِ داود ، وظلَّ يُصلّى للّـه ربِّ العالمين . ولما أصبحَ الصباحُ راح يُشاهدُ آثارَ الأنبياء ، فرأى محرابَ داود ، وصخرةَ يعقوب ، وأطلالَ هيكل سُليمان ، فشكر اللّه أنْ جعل فتح هذه البلدة المقدّسةِ على يديه.

والتفت عمرُ إلى من حولَه ، وقال :

ـ ارقبُوا لى كَعْبا .

كان كعبُ الأحبارِ يهوديًّا ثُمَّ أسلَم ، وكَان يعرِف العاداتِ اليهودية ، فلما جاء كعبٌ قال له عُمر :

ـ أينَ ترى أن نَجعلَ المُصلَّى ؟

فقال كعب : إلى الصَّخْرة .

فلم يعجبْ هذا الرأيُ عمر ، فقد كان اليهودُ يقدِّسونَ صخرةَ يعقوب ، فقال :

ـ ضاهيتَ اليهوديَّة يا كعب ... بل نجعَلُ قبلتَه صدرَه ، كما جعل رسولُ اللّه صلَّى اللّهُ عليه وسلَّمَ قبلةَ مساجدِنا صُدورَها ، فإنا لم نُؤمَر بالصخرة ، ولكنَّا أُمِرنا بالكعبة .

فجعل قبلةَ المسجدِ الأقصى صدرَه ، ثم قام من مُصلاّه إلى كُنَاسة كانت الرُّومُ قد دفنتْ بها بيتَ المقدس في زمان بني إسرائيل ، فراح يُزيلها ، وقال لأصحابه :

ـ اصنَعوا كما أصنع .

ولم يزلْ عمرُ والمسلمونَ يزيلون الكُناسة ، حتى زال كلُّ ما على الصخرة ، فقد كانت الموضعَ الذى أُسْرِى برسول اللّه إليه .

وتمّ لعمرَ فتحُ بيتِ المقدِس ، فعاد إلى المدينة ، فخفَّ الناسُ إليه يستقبلونَه فرحينَ مستبشرين .

٥

انتصر المسلمونَ في العراق وفي الشَّام ، فتدفّق المالُ على المدينة تدفُّقًا عظيمًا ، ولم يكنْ هناك أماكنُ يُحتفظ بها ، فكان يوضع في المسجد ويُقام عليه حرسٌ حتى يُقسَّمَ بين المسلمين .

كان أبو بكرٍ يَقْسِمُ الأموالَ التى تصل إلى بيتِ المال بالتَّساوى على المسلمينَ كافَّة ، ولكنْ لما تولَّى عُمر الأمر ، رأى أنَّ تسويةَ المسلمين جميعا بعضِهم ببعض ، ظلمٌ بالسَّابقينَ في الإسلام ، فكيف يُسوَّى بين مَن أسلَمَ مع رسول اللّه وحارب معه ، ومن أسلَم بعدَ ذلك وكان يحاربُ رسولَ اللّه ؟ فقام يخطب النَّاس فقال : واللّه ما أحدٌ أحقَّ بهذا المال من أحد ، وما أنا بأحقَّ به من أحد ، واللّهِ ما من

المسلمينَ من أحدٍ إلاّ وله فى المال نصيب ، إلاّ عبدا مملوكا ، ولكننا على منازلنا من كتابِ اللّهِ تعالى ، وقَسْمِنا من رسول اللّه ، فالرّجلُ وبلاؤه فى الإسلام ، والرَّجُل وقِدَمُه فى الإسلام ، والرَّجل وغناؤه فى الإسلام ، والرَّجل وصاحبُه ، واللّهِ لئن بقيتُ لهم ليأتينَّ الراعى بجبلِ صَنْعَاءَ حظُّه من هذا المال وهو يرعَى مكانَه .

وجاء إلى المدينةِ مالٌ كثير ، فقام عُمر ، وقال للناس : أيُّها الناس ، قد جاءنا مالٌ كثير ، فإن شئتُم كلنا كيلا ، وإن شئتم أن نَعُدَّ عَدّاً .

فأشار بعضُ المسلمين الذين جابوا بلادَ الفُرسِ والرّومِ عليه ، أن يُدوِّنَ الدواوين ، أى يكتبَ قوائمَ بأسماء النّاس ، يوضِّحُ قرينَ كلِّ اسمٍ رزقَه الشهّرىّ ، فَقال : دَوِّنوا الدواوين .

وأمر بإحصاء القبائلِ العربية ، فأَحْصِيَت ووُضعتِ السِّجلاّتُ فى صناديقَ كبيرة ، وقد بدأ عمرُ

بالأقربِ للنبيّ ، ثم فَرَض لأهلِ بدر ، ومن بعدهم لأهلِ الحُدَيْبية وبيعةِ الرِّضوان ، ثم لمن بعدَهم ، ولأهلِ القادسيَّة واليَرْموك .

وقال عُمرُ للناس :

ـ إني كنت امرأً تاجرًا يُغنى اللّهُ عيالى بتجارتى ، وقد شغلتُمونى بأمركم ، فماذا تَرَوْن أنه يحلُّ لى من هذا المال ؟

فأكثرَ القوم ، وعلىُّ بنُ أبى طالبٍ ساكت .

فقال له عمر:

ـ ما تقولُ يا علىّ ؟

ـ ما أصلحَكَ وأصلحَ عِيالَكَ بالمعروف ، ليس لك من هذا المالِ غيرُه .

ـ القولُ ما قالَ ابنُ أبى طالب .

فكان عمرُ لا يأخذُ من هذا المال إلا ما يكفيه ويكفى عِيالَه ، وحُلَّةَ الشتاء وحُلَّةَ الصيف ، فللّهِ درُّ عمر ، لقد أتعبَ الحكّامَ من بعدِه .